مراجعة كتاب "من أجل تجديد التنوير الإسلامي"، لمحمد المصباحي

محمد المصباحي، من أجل تجديد التنوير الإسلامي، الرباط: دار الأمان. 2024، 175 ص.
ISBN 2024 MO1811

صدرَ للمؤلّف محمد المصباحي، أستاذ الفلسفة الإسلاميّة سابقاً، بجامعة محمد الخامس بالرباط، كتاب بعنوان "من أجل تجديد التنوير الإسلامي"، من منشورات دار الأمان بالرباط. يحتوي هذا العمل على مقدمةٍ وأحد عشر فصلاً، وهي كما يلي: من له الحق في الكلام باسم الإسلام؟ (الفصل الأول)، الإسلام السياسي والديمقراطية (الفصل الثاني)، أوجه التقابل والتناسب بين الديمقراطية والإسلام السياسي (الفصل الثالث)، التباس مفهوم العلم وتأثيرهُ على الخلط بين الديني والسياسي (الفصل الرابع)، الاتصال والانفصال بين الخلف والسلف بين الجابري والعروي (الفصل الخامس)، بين السلفيّة المستنيرة والسلفيّة المتزمتة (الفصل السادس)، من أجل تجديد التنوير الإسلامي لمواجهة تحديات الأزمنة الحديثة (الفصل السابع)، سرديات التنوير الرشدي العربي الحديث (الفصل الثامن)، الموقف العدلُ باعتبارهِ أداة حضور الفكر الفلسفي العربي الإسلامي في الحضارة الإنسانيّة المعاصرة (الفصل التاسع)، التحالف بين الفلسفةِ والدين لدى ليو شتراوس(الفصل العاشر)، خصائص تنوير الفلسفة العربيّة الإسلاميّة (الفصل الحادي عشر).

ومن هنا، يبحثُ هذا الكتاب-أعلاه- في مسألة التنوير في العالم العربي وشروط إمكانهِ ضمن أفق منهجي ونقدي ينتسب إليهِ باحثون ومفكرون عرب معاصرين على سبيل المثال لا الحصرِ، محمد أركون، وعبد الله العروي، وناصيف نصار، وكمال عبد اللطيف، وعبد المجيد الشرفي، ورضوان السيد، والجابري، وحسن حنفي..، هؤلاءِ الّذين فكروا في إشكاليتي التراث والحدثة على ضوء مناهجَ العلوم الإنسانية والفلسفةِ. ومن ثمةَ نسجلُ، بدءاً، أنّ كتاب "من أجل تجديد التنوير الإسلامي" لم يخرج عن إحداثيات التفكير النقدي العربي وخلفياتهِ التي تروم ربط التنوير بالنقد، وربط العقل بحرية الإنسان، والدولة المدنية بالديمقراطيّةِ، وهذا يفيد أنّ مشروعَ المصباحي في الفلسفة العربيّةِ الإسلاميّة عامة، والرشديّة على وجه التخصيصِ لم تمنع روحه النقديّة من تجاوز أفق العقلانيّة الرشديّة، ونقد القراءات العربيّة التي تصرُّ على ربط مصيرنا بمصير عقل ابن رشد، أو تدعو للقطع أو طي صفحة الماضي، فالرؤيّة الفلسفيّة النقديّة ساهمتْ بلورةِ المؤلف لموقف عدلٍ تضع مسافة بين الذات القارئة والتراث، وبين التنوير الحديث وماضينا العقلاني المُشرق. كما يجدرُ بنا في هذا المعرضِ أنِ نشيرَ إلى حيويّة هذا المشغل الفلسفي النقدي في

PHILOSOPHICAL STUDIES JOURNAL
Published with license by Koninklijke Brill BV | DOI:10.1163/2950225X-20250010
© YOUSSEF BEN ADDI, 2025 | Open access content distributed under the terms of the CC BY-NC 4.0 license..

كتابات الأستاذ المصباحي السابقة؛ نذكر منها؛" الوجه الآخر لحداثة ابن رشد"(1998م)، و"جدل العقل والمدينة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة"(2013م)، و" الذات في الفكر العربي الإسلامي"(2017).

وعلى هذا استطاع المصباحي في هذا الكتاب أنْ يسلط الضوء على عوائق التنوير في التراث العربي الإسلامي، فضلا عن تشريح البنيات الذهنيّة والأيديولوجيّةِ والدينيّة التي تقف حجر عثرة أمام النهوض العربي والتنوير الإسلامي. فلعلّ الهجوم على العقل والعقلانيّة استراتيجية تترجم، مع الأسف، سوء فهم للإسلام، وسوء فهم للحداثة والتنوير. يقول المصباحي؛ "فيكون معنى التنوير بنور العقل هو أنْ تصبح الذات مصدر معرفتنا بالعالمِ، ومنبعَ تشريعها للقيم والفضائلِ، سواء كانتْ الذات فرد أو ذات الأمة."(ص77) وهذا يعني أنّنا في مواجهة مع عوائق التنوير الجاثمة على صدر الأمة العربيّة الإسلاميّة اليوم من فشوِ التيارات اللاعقلانيّة ورؤى تعمل، بلا هوادة، على الاجهاز على كلّ ما هو كوني، وإنساني مشترك، وترعى عمليات تدمير الجسور بين الأديان، والحضارات والثقافات. فتوظيف تيارات "الإسلام السياسي" لنصوص الشريعة والعقيدة، واستعمال الأحاديث النبويّة استعمالاً سياسياً ومذهبياً هو السعي الممسوخِ" لإضفاء المشروعيّةِ لأوكار الإرهابِ الّذي يشلُ إرادتنا ويوقف عقلنا، ويقمع خيالنا ويحط من سمعتنا أمام العالمين"(ص75). والغني عن البيانِ أنّ الكتابَ يجمع بين نقد العوائق وتفكيك مآزقها التكوينية والتاريخيّة والنقد الأيديولوجي للتوجهات الدينيّة المنغلقةِ، والفحص الفلسفي الّذي يعمل على المعاني الوجودية والأخلاقيّة والثقافيّة والحضاريّة التي دوّنها الفلاسفة وأهل الكشف والتصوف، وعلماء الكلام، والفقهِ والأصول؛ هي معاني فلسفيّةٍ تدلُ على كيفيّة تعاطي تراثنا وماضيها مع الموجود والحق والعقل والمعقولات، ولعلها جسرٌ يفيد انخراطنا في مسار التنوير الحديث، أو التفكير في التنوير الإسلامي في الفضاء الكونيّة والإنسانيّةِ.

يبدو لنا أنَّ محمد المصباحي يتخذ مسلكاً منهجياً وعمليّاً لمواجهة عوائق التنوير في زمننا الحاضر، ويتعلقُ الأمرُ بضرورة التمييز بين المطلق والنسبي، بين التاريخي والإلهي الّذي يؤدي، بالفعل، إلى ارتباك نظري في التعاطي مع زمن الوحي، وزمن الحداثة، والإسلام باعتباره دينا، أي إيماناً بالقلب(ص5)، و" الإسلام كشريعة حالمة بين طياتها مشروعاً اجتماعيا واقتصادياً وسياسياً صادراً عن اللّه، بحثاً عن العدالة والسعادة كما يتصورها إنسان ذلك الزمان الّذي انبثق فيه"(ص5). وليس من شك أنَّ الّذين يتحدثون باسم الإسلام يشكلون خطراً على الدولة والمجتمع؛ إذ يتحولُ الإسلامُ إلى ايديولوجيّة دينيّة تعمل على محاصرةِ الحريّة، وتدمير مكتسباتنا الذاتيّة وقوة تفاعلنا مع العالم الإنساني. ومن المفيد القولُ إنّ الإسلام يضفي على العقل قيمة ساميّة في العلم والأخلاقِ والسياسةِ والاجتماع، ولعل فقدانه اليوم، في زمننا الحالي هو فقدان لوجودنا، ولاستقلالنا، وذاتيتنا؛ وللخروج من هذه المآزق والآفاتِ يستلزمُ الإيمان بانفتاح" العقل على الوحيِ، والوحي على

العقل أي الحوار بين خطاب الأمر وخطابُ الاستدلالِ"(ص7). إذاً، في غياب الحوار بين العقل والشريعة – على غرار ابن رشد- أو التفكير في وضع الملة على ضوء العقل، ومحاولة دمج الدين في الفضاء العمومي وتحويله إلى عناصر إيجابيّةٍ، سننتظرُ عقلاً مهزوماً، وفكراً مرتداً، وثقافة فارغة. يقول المصباحي أنّنا ملزمون على" تأهيل الفكر الديني كي يلعب دوراً إيجابياً في بناء الدولة الديمقراطيّة، وترسيخ أركانها وتكريسِ قيمتها، ومن جهة ثانيّة على تمكين الدولة من وسائل الحداثةِ والتحديثِ الّذي من شأنها أن تقوم بتطويرِ مقترحات الدين ومقاصده وتجدد تصوراته ومفاهيمهِ"(ص8). وعلاوة على ذلك، التفكير في التنوير الإسلامي لا يستوي دونما التفكير في الدولة المدنيّة، دولة قويّة بعدالتها، وعلمها، وقوانينها، دولة لا تهاب انتشار التيارات الدينيّة ولا التيارات الليبرالية والحديثة المغاليّة لأنّها تضع حدود بين السياسةِ والدينِ، بل هي دولة تؤمن بالحريات والحقوق والمواطنة.

فلما كانت الدولة الديمقراطية تؤمنُ، وتؤمّنُ قيم التنوير في المجتمعات، فإنّ تيارات الإسلام السياسي تطمح ترجمة الإرادة الإلهيّة، والحق المطلق، والخضوعِ والوصايةِ، والطاعة والتقليد على أرض الواقع. لابد من التقرير هنا، أنّ العلمانية وليدة التنوير، وهي الملاذ الآمن لحماية الإيمان، والشريعة والعقل من التوظيف الأيديولوجي. ونستنتجُ مما تقدمَ أنّ استمرار الخلط بين البشري والمقدس، وبين المطلق والنسبي، وببن اللاهوتي والسياسي سنبقى، بلا شك، في منأى عن أفق التنوير والعقلانيةِ. يقول المصباحي؛" مشكلة كثير من تيارات الإسلام السياسي المتشددة هي أنّها لم تستوعب الفرق الهائلَ بين الشرط التاريخي الّذي فرض على الفقهاء في الماضي ضرورة التفكير في الشأن السياسي، وبين الشرط التاريخي والسياسي الّذي يفرض على الفاعلين السياسيين الصادرين عن الرؤية الإسلاميّة تجديد تفكيرهم في الشأن السياسي"(ص37). ولعلّ الخطر الرهيبُ هو أن ندعو إلى طي صفحة التراث، أو ندعو إلى التشبث به دونما تمحيص أو دراسة علميّة لشروطه التاريخيّة وسياقاتهِ السياسيّة والدينيّة؛ يعني هذا أنّ" الإصرارَ على تجاهله لا يمكنه إلا أنْ يديم نفوذه فينا وهيمنتهُ علينا[...]لأنّنا لو ألقينا به في سلة المهملات فسيلتقطهُ من في قلوبهم مرض لينكدوا به حياتنا ويتخذونه ذريعة شرعيّة لتبرير كلّ ألوانِ العدوانِ والظلمِ والإرهاب المادي والفكري والعقدي"(ص57). وفي هذا المعرض، يحاول المصباحي أنْ يميز بين الإسلام السياسي والسلفيّة المستنيرة، هذه الأخيرةُ التي هي حركة وطنيّة تحرريّة منفتحة على الكوني والإنساني، وقد اشترط على الإسلام السياسي تغيير قناعاته ومروياتهِ؛ أي التزامه" بالوطنيّة بدلً العالميّةِ وبالمواطنةِ بدلً الولاءِ والطاعةِ، وبالعقلانيّةِ بدل اللاعقلانيّةِ وبالحداثةِ بدل التقليد، فإنّه سيكون بالتأكيدِ ديمقراطياً"(ص26).

ويبدو لنا أنّ مقاربة المصباحي لعوائق التنوير، هي مقاربة أيديولوجيّة تحمل في طياتها لغة المواجهة، والصراع، ولغة التفاوض والتنازل عكس المقاربة الفلسفيّة التي تؤمن دور العقل في التراث العربي الإسلامي ومعانيه المتجددةِ على ضوءِ المنجز الفلسفي المعاصر؛

نفهم من هذا أنّ نور العقل، بالمعنى الميتافريقي والطبيعي أمسى نوراً تاريخيّاً،" يتجدد في صفاتهِ وأحوالهِ وأفعالهِ ومعاييرهِ بحسب تجدد تاريخ الإنسانِ"(ص76). وهكذا، فالتنوير لدى المصباحي أداة فعالة لتجديد العقل، وتفعيل الفرد المواطن يحمل كامل المسؤولية، وتوفر على الحريةِ في مواجهة الوصايةِ والتقليد. يقول المصباحي؛" قصارى القول لا يكفي أنْ ننتقد العقل الإسلامي، بأن نقوم بتشخيص أعراضهِ وآفاتهِ، بل يتعين أنْ ننهضَ بمهمةِ إصلاحه"(ص79).

شرع المصباحي على نسج مقارنات بين تنوير رشدي وتنوير كانط لبيان أنَّ عوائق الأوّل هو تصوره للموضوعِ والذات، وأسبقيّة الموضوع على الذات على حين شرط التنوير هو حضور الذات حضوراً نقدياً بناءً على الحريّة والاستقلاليّة، واستعمال العقل في وجههِ العمومي والخاص(ص84). إذاً، إنّ التنوير هو فعاليّة وديناميّة متجددة ترفض سكون الأفكار وجمودها، عكس تصور ابن رشد الّذي يؤمن فكرة" كمال الفلسفةِ عند الفيلسوف بعينهِ من ثم كان الشعور بالجدة والجديدة والرهنية والتجاوز أهم ما يميز عقلانيّة التنوير عما عداها من العقلانيات "(ص87). بل أكثر من ذلك عمل ابن رشد على منع الجمهور من المعرفة البرهانيّة عكس التنوير الحديث الّذي أعطى للجمهور حق المعرفة، وإبداء الرأي في الفضاء العمومي. ما يقول المصباحي؛" تحول العقل الّذي كان غارقاً في نظام من العقول إلى فكر خفيف هو عبارة عن نور داخلي يضيء به الفرد العالم، أي يملي على الطبيعةِ أنظمتها وقوانينها، ويصدر كل القرارات والأحكام العمليّة لتدبير حياته ووجودهِ في الدولة"(ص88)

إنّ الانخراط في مسار التنوير إذن ليست قضيّة اختيار أو مسألة التداول والاستشارةِ وإنّما هو قدر تاريخي؛ فإمّا أنْ نجاري تطور العلوم والمعارف، ونجاري تحولات القيم والمبادئ والقوانين، وإمّا أنْ نرتد إلى كهف الماضي حيثُ تصيرُ ذواتنا غريبة عن زمنها، وحاضرها. ألم تشهد الفلسفة العربيّةُ تطوراً وتفاعلاً، وإبداعًا للمفاهيم، واجتراحاً للمقولات عندما اتصلتْ بالموروث الإغريقي، إذ لم يكن عقماً فلسفياً أو مسخاً تاريخياً بقدر ما كان "تنويراً" حقيقياً، وتمشياً منهجياً ونظرياً هائلاً، ويعني هذا؛" أنّ الحوار مع اللغةِ والفلسفةِ اليونانيتين أحدث أفقاً جديداً داخل فضاء العالم العربي الإسلامي، فأضحى يفكر في أفقين يتعايشان حينا، ويتصارعان حيناً آخر على جميع المستويات اللغويّة والكلاميّة والعقليّةِ والصوفيّة والفلسفيّةِ"(ص156)، والجدير بالذكر هنا أنّ الرؤية العقليّة أصبحتْ شاملة لكلّ مجالات الوجود الأنطولوجي والطبيعي والإنساني، وأهّلها لكي تتصفَ بالإنسيّةِ أي "الدفاع عن الإنسان كقيمةٍ مطلقة وذات حرةٍ ومسؤولة وقادرةٍ على الفعلِ والتغيير"(ص170).

لننعطف ونقول إنَّ كتاب" من أجل تجديد التنوير الإسلامي "لمحمد المصباحي هو كتاب نقدي ينخرط في جدل فلسفي وأيديولوجي مركب من معطيات نظريّة وتاريخيّة تستندُ إلى تاريخ الفلسفة العربيّة ومنجزات الفكر الفلسفي المعاصر. لقد كان هاجسُهُ هو ابراز ملامح التنوير الإسلامي الممكن في ظل تفشي توظيف الدين والشريعةِ في الصراعات

السياسيّة، بل أبعدَ من هذا تحوّلُ العقيدة إلى متاريس أيديولوجيّة دينيّة تنطق باسم الإسلام، وتعمل على احتكار الحقيقةِ، وتقييد الحريةِ، وتبديد كلّ أملٍ، وتدمير كلّ طموحٍ في إمكان التنوير في العالم العربي. والظاهرُ أنّ تناول المصباحي لمثلِ هذه المآزق البنيويةِ والتاريخيّة والثقافيّة والسياسيّة التي تعيق مسار التنوير العربي الإسلامي فرضَ عليه أنْ يوظف منطق المماثلة أو المقابلة كمدخلٍ لتفكيك عوائق التنوير وحدود مساهمتنا في الحضارةِ المعاصرةِ من جهة أولى، ووضع شروط امكان العقلانيّة التنويريّة في فكرنا العربي المعاصر من جهة ثانيّةٍ. يستفاد من هذا أنّ مشكلاتنا تتمثلُ في نقد جذري لهذه المماثلات التي أدتْ إلى مفارقات كثيرة بين الإسلام وتيار "الإسلام السياسي"، وبين زمن التراث وزمن الحداثة والتنوير، والديمقراطيّة والدولة الدينيّة، والعلمانيةِ والشريعةِ، والسلفيّةِ المتشددة والسلفيّة المستنيرة. إنّها مفارقات تولد عوائق التنوير العربي، كما أنّها تحفّز على النقد والمراجعة لذواتنا، ونوع تعاطينا مع التراث والحداثةِ؛ إذ لم يرض المصباحي في قراءة التراث بحل القطيعة أو الانتظام في التراث كما زعم الجابري، ولو يكن يطمئنُ إلى طيِّ صفحة الماضي إلى الأبد، وإنّما راهن على دراسةِ التراث دراسة علميّة تمكنُ الذات القارئة من استيعابه وتجاوزهِ نحو أفق واسع، هو أفق المشترك الإنساني. يبدو أنّ هذا الطموح المعرفي والرهان التاريخي لتحقيق التنوير الإسلامي في عالمنا بقيّ بين فكي كماشة التراث والحداثة أو بعبارة أدق بدا المصباحي يدعو تارة إلى الانفصال عن التراث من أجل التنوير الحديث، وتارة أخرى يدعونا الاتصال بالتراث الفلسفي، والصوفي والكلامي لاقتناص معانيه ودلالاتهِ في زمن الحاضر.

وعلى هذا، يحتوي هذا الكتاب على مقاربتين(مقاربة فلسفيّة، ومقاربة أيديولوجية) لعوائق التنوير وإمكانه؛ وهو الأمرُ الّذي يزجُ بالقارئ في مواقف متوترة إزاء مشكلات سياسيّة واجتماعيّة وحقوقيّة، وسطوة التراث والماضي في الحاضر، إذاً، نستنجُ أنّ رؤيةّ الكتاب تتأرجح الدفاع عن ما تبقى من التراث الفلسفي أو عقلانيات الحضارة العربيّةِ، والاندماج في التنوير الحديث قيمه، ومبادئه، ويظهرُ لنا هذا المنطق المزدوج في فصول الكتاب حيثُ يروم تكريسه وتجذيره في الوقت الّذي يرسمُ المؤلف إمكان التنوير الإسلامي على أساس شروط محددّة؛ العقلانيّة، والإنسيّة والعلمانيّة، والديمقراطيّة؛ لكن الأمر اللافت أنْ يقدم الأستاذ تنازلات، بعد نقد جذري وقاسي، لتيارات الإسلام السياسي حركات الدينيّة المتشددة متى عزمتْ على الإيمان بالحداثة بدا التقليد، وبالعقلانيّة بدل اللامعقول..، أو التقرير بضرورة تأهيل الفكر الديني وإعادة ربط العقل بالملّةِ، والتنوير بالشريعة، هنا استعمل المصباحي مقاربة أيديولوجيّة لتفكيك مواقف التيار الديني السلفي المتشدد، والمستنير، وتيارات الإسلام السياسي وعلاقتها بصناعة الديمقراطيّة والعلمانيّة، والدولة المدنيّةِ. يبدو لنا أنّ شروط امكان تجديد التنوير الإسلامي يتوقفُ بالضرورة على البحث على أوجه التشابه والتشارك بين الحضارات، ومساهمات الشعوب والأمم من توظيفات

للعقل والعقلانية، والدفاع على قيمة الإنسان وحريته ووجوده، على حين تمنح المقاربة الأيديولوجيّة استراتيجيّة التفاوض على ضوء معطيات الواقع الاجتماعي والسياسي العربي، فبعدما كان إيمان الأستاذ المصباحي بقوة الوعي في توجيه البوصلة نحو التنوير، أمسى الواقع ومشكلاته وموجات نشوء حركات التدين التعصبي، وكراهيّة العقل والحريّة، من عوائق تجديد التنوير الإسلامي. وبهذا، يجيبُ هذا العمل عن سؤالين كانا لدى المصباحي المدخل الرئيس في تجديد التنوير الإسلامي، وهما: سؤال أيديولوجي؛ كيف يمكن تحويل الدين والشريعة إلى عنصرٍ فاعلٍ في التنوير في عالمنا العربي؟ وسؤال فلسفي؛ هل نستطيع أنْ نحوّل عقلانيّة الفلاسفة، وعقلانية المتكلمين، والمتصوفة إلى منظورات تأويليّة وأنطولوجية تساهم في المشترك التنويري الإنساني.؟

مراجعة: يوسف بن عدي | ORCID: 0009-0008-7843-8797
أستاذ محاضر مؤهل، كليّة الآداب والعلوم الأنسانيّة، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب
youssef_ben_addi@yahoo.fr